الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ١٩٩٩٣ / ٦٢٦٦٩

العدد ٢٧١ | الثلاثاء ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ٧ من مارس سنة ١٩٤٤ | السنة السادسة

فهرس العدد

فلسطين

بعد أن وقفت الحكومات العربية موقفها الحميد من المسألة اللبنانية ، وبعد أن كللت الجهود التي بذلت لنصرة الحق وإزهاق الباطل ، بذلك النجاح الباهر ، أخذت تلك الحكومات تسعى مرة أخرى لنصرة جارتنا وشقيقتنا فلسطين ؛ ولعلها — إن شاء الله — بالغة في سعيها هذا نجاحا لا يقل عما أصابته أمس في مسألة لبنان .

إن الذين يرقبون الجهود المبذولة في أمر الوحدة والتحالف بين الأقطار العربية ، كانوا دائما مشفقين من أن تقوم في سبيل تلك الجهود عقبات شديدة حينما تعترضها المشكلة الفلسطينية ... وأنها لن تلبث عندئذ أن تفتر أو تهمد . ومن حسن الحظ أن هذه الظنون لم تتحقق ؛ وأن الحكومات العربية لم تبد أدنى فتور أو تردد أمام هذه المشكلة التي يتوهم كثير من الناس أنها أعقد المشاكل في العالم العربي كله .

والصحيح أن مسألة فلسطين ليست أقل قبولا للحل من أية مشكلة أخرى ، إذا هي عولجت بروح خالصة ، وبعد عن الشهوات والأهواء ، وتحرر من تلك النزعات الشريرة ، التي خاضت الديمقراطيات هذه الحرب للقضاء عليها ، أما إذا كانت الوسائل المتبعة في معالجتها مبنية على القهر والبطش ، والبعد عن الإنصاف ، فإن مشكلة فلسطين ستزداد على الزمن تعقدا .

لقد عانت جماعات اليهود في كثير من أقطار العالم من الشقاء والعذاب والاضطهاد ، ما هو معروف ، وذلك في العصور الوسطى والعصور الحديثة ، ولكن هنالك دولة واحدة ومجموعة واحدة من الأقطار عاش فيها اليهود في أمن ويسر ورخاء ، ناعمي البال قريري العيون ، متمتعين بالحظوة والعناية والرعاية ، تلك هي الدولة العربية ، والأقطار الإسلامية . ولقد بلغ من اندماج اليهود في الحضارة

العربية أن الأدب العبرى فى العصور الوسطى تأثر كثيرا بالثقافة العربية فى الشرق وفى إفريقيا والأندلس . وعند ما لقى اليهود فى أسبانيا النصب والاضطهاد فى ظل «محكمة التفتيش» ، دعاهم السلطان العثمانى سليمان لأن ينزلوا فى دولته الواسعة الأطراف ، حيث نعموا بالأمن بعد الخوف ، وبالعز بعد الذل ، وبالرخاء بعد الشدة .

وهكذا كانت الأقطار التى يسودها الإسلام ، هى الوحيدة فى العالم التى لم ينشأ فيها فى أى وقت من الأوقات روح بغض اليهود . لهذا كان من العجب أن يكون الشعب العربى اليوم هو الذى يدفع الثمن الرهق للاضطهاد الذى عاناه اليهود فى البلاد غير العربية . ومن العجب ألا تحس جماعات اليهود أنهم بهذا يقابلون الإحسان بالإساءة والجميل بالنكران ، ويصبحون أداة لاضطهاد شعب برىء ، وهم الذين طالما ضجوا بالشكوى من الاضطهاد .

إن من المعقول المقبول أن يتعلق الشعب اليهودى بفلسطين ، وبالأرض المقدسة التى يشاركها دينهم مع التى عاش فيها أنبياء بنى اسرائيل ، وأن ينظر إلى ذلك القطر نظرة إكبار وإجلال . ومن الضرورى أن تكون هنالك صلة مقدسة بين اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وبين ذلك القطر الكريم ، كما للمسلمين صلة وثيقة بالجهات المقدسة فى الحجاز وفلسطين . ولكن أقل تفكير — بعيد عن التحمس والطيش — يرينا أن تلك الصلة لا يمكن أن تكون صلة روحية ، وأن «الوطن القومى» فى فلسطين لا يمكن أن يكون إلا وطنا روحيا . ومن العبث أن يبنى هذا الوطن الروحى على دعائم من المشاريع الصناعية والتيارات الكهربائية ، والمداخن الطويلة ، التى شوهت وجه ذلك القطر الكريم ، ومسخته مسخا أليما .

إن فى العالم اليوم من اليهود نحو سبعة عشر مليونا من الأنفس . كان توزيعهم قبل الحرب الحاضرة على الصورة الآتية . ونسبتهم المئوية لمجموع السكان :

الولايات المتحدة	٤ر٧٠٠ر٠٠٠	(٤ ٪)
بولندة	٣ر٣٢٥ر٠٠٠	(١٠)
اتحاد السوفييت	٣ر١٨٠ر٠٠٠	(٢)
رومانيا	٨٠٠ر٠٠٠	(٤)
المجر	٥١٠ر٠٠٠	(٦)
ألمانيا	٤٧٥ر٠٠٠	(١)
فلسطين	٤٤٠ر٠٠٠	(٣٠)
بريطانيا	٣٥٠ر٠٠٠	(١)
تشكوسلوفاكيا	٢٩٠ر٠٠٠	(٢)
فرنسا	٢٨٠ر٠٠٠	(١)
ارجنتينا	٢٧٥ر٠٠٠	(٢)
كندا	١٨٥ر٠٠٠	(٢)
مباكتى	١٧٥ر٠٠٠	(٣)
لتوانيا	١٦٥ر٠٠٠	(٧)
سائر الدول	١ر٧٠٦ر٠٠٠	—

فهذا العدد العظيم من الأنفس لا يستطيع أى عقل منصف أن يتصور أن يتسع له قطر من فلسطين لا تزيد مساحته على عشرة آلاف من الأميال ! ولقد يرى بعض المتحمسين من قادة اليهود أن من الممكن ، بتحويل فلسطين إلى قطر صناعى ، أن يتسع لبضعة ملايين من الأنفس ! بل لقد يذهب بعضهم إلى أبعد من هذا . ولكن هذه التصورات لا تعدو أن تكون أوهاماً يولدها الخيال . والذين يحبون الأرض المقدسة وتربطهم بها تلك الروابط الروحية العزيزة ، يؤلمهم أشد الألم أن يتصوروا ذلك القطر الكريم ، وقد شوهته تلك المشروعات الصناعية القاتمة ، وألبسته ثوبا من الدمامة يعادل ما نراه فى الأقطار الصناعية فى أوربا .

لقد وسعت فلسطين نحو نصف مليون من اليهود ، يعادل ثلث سكان القطر كله . وبهذا زادت نسبة اليهود على نسبتهم فى أى قطر من الأقطار بمقدار كبير . ولا يمكن لأى منصف أن يطلب من سكان فلسطين أن يضحوا بكيانهم الشعبى بأن يسمحوا لأنفسهم بأن يصبحوا قلة ذليلة فى وطنهم وديارهم .

وليس تغلغل اليهود فى فلسطين مقصوراً على مجرد النسبة العددية ... بل لقد استطاعوا بفضل أموالهم الطائلة

أن يشتروا مساحة عظيمة من الأراضي الزراعية . أكثرها في الأقاليم السهلة مثل مرج ابن عامر الذي يعد أغنى بقاع فلسطين وأكثرها خصوبة . وفي الخريطة المرسومة هنا وهي منقولة عن تقرير القومسيون الملكي ، برئاسة اللورد بيل ، لعام ١٩٣٦ نرى كيف استطاع اليهود أن يمتلكوا مساحات واسعة في الجهات الشمالية ، وهي الأكثر ماء وخصوبة ، وعلى سواحل البحر المتوسط من عكا إلى قرب الحدود المصرية ، وقد استطاعوا أن يستصلحوا كثيرا من الأراضي الرملية التي لم تكن تزرع من قبل . ولكن من الخطأ أن يتوهم أحد أن جميع أراضي المستعمرات اليهودية هي من هذا الطراز ، بل أكثرها أرض صالحة كانت تزرع من قبل .



وهكذا نرى أن لليهود اليوم في فلسطين عدداً كبيرا من المهاجرين ، قد استقروا في الأرض المقدسة واستوطنوها كما أنهم يمتلكون نسبة عالية من الأرض الجيدة فيها ، يزرعونها ويستثمرونها ، إلى جانب مشاريعهم الاقتصادية الكثيرة ، تجارية كانت أم صناعة .

وليست المشكلة الحقيقية التي تواجه اليهود اليوم هي مشكلة الهجرة ، والحاجة إلى أقطار مثل فلسطين لكي يهاجروا إليها ؛ فإننا إذا تأملنا تاريخ الهجرة إلى فلسطين رأينا ظاهرة غريبة . وهي أن نحو خمسة وسبعين في المائة من أولئك المهاجرين جاءوا من وسط أوربا وشرقها . وأن الذين هاجروا إلى فلسطين من بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا عددهم ضئيل جدا بالنسبة إلى مجموع المهاجرين ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية — وهي التي تحتوي نحو خمسة ملايين من اليهود ، أي أكثر مما يحتويه أي قطر آخر — لم يهاجر منها إلى فلسطين سوى ثمانية آلاف نسبتهم إلى مجموع المهاجرين ثلاثة في المائة !

فمن الواضح أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها جماعات اليهود اليوم ليست الحاجة إلى الهاجرة إلى فلسطين التي لا يمكن أن تتسع لأكثر من نسبة صغيرة منهم ، بل الحاجة الحقيقية هي أن يعامل اليهود في الأوطان التي يعيشون فيها معاملة حسنة مثل التي يلقونها في غرب أوربا وفي الولايات المتحدة ، وهذه هي الوسيلة التي يمكن أن تحل بها المشكلة اليهودية ، وإلى هذا السبيل يجب أن توجه جهود قادة اليهود .

إن أول مهاجرة لليهود إلى فلسطين لم تحدث بعد الحرب الماضية كما يتوهم كثير من الناس . فإن هناك مستعمرات قديمة أسست في أواخر القرن الماضي ، وأوائل القرن الحالي ، وهي من أحسنها وأكثرها نجاحا . ولقد أسست في ظل الحكم الإسلامي ، دون أن تسبب نفورا بين الطوائف التي تسكن فلسطين . وعند نهاية الحرب الماضية كان في فلسطين نحو ثمانين ألفا من اليهود ، يعيشون في وئام وتفاهم مع سائر السكان .

من الخطأ إذن أن يعزى تأسيس الوطن القومي لليهود إلى تصريح بلفور الصادر عام ١٩١٧ ؛ فإن كل ما صنعه هذا التصريح هو أنه قال إن الحكومة البريطانية تنظر بعين الرضى إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ،

ولكن ذلك الوطن في صورته الصحيحة قد أنشيء قبل ذلك العهد. وكان من الخير أن إكمال ذلك الوطن — إن كان في حاجة إلى إكمال — يظل كما كان من قبل أمراً بين اليهود والعرب، وأن يتمشى بروح الاعتدال التي أسس بها.

ولقد كان من المحزن أن الأمور لم تسر في هذا المجرى، وأن اليهود قد قرروا ألا يكتفوا بإنشاء «وطن قومي» في أرض فلسطين، بل أن يحولوا فلسطين إلى دولة يهودية. فنادى زعيمهم بأن فلسطين يجب أن تغدو يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية وبلجيكا بلجيكية. وهذا القول — إن دل على معنى — فإنه يدل على إصرار قديم على السيطرة التامة على القطر الفلسطيني، وتحويل السكان الأصليين إلى أقلية، قليلة الخطر.

هذه السياسة قد عبر عنها الزعماء اليهود صراحة منذ عام ١٩٣٠؛ واضطرت الحكومة البريطانية لأن ترفضها بصورة رسمية لا تقبل الشك أو الإبهام في عام ١٩٢٢؛ ثم كررت هذا الرفض في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩، فقد جاء في البند الرابع من ذلك الكتاب العبارة الآتية:

«لقد سبق لحكومة جلالة الملك في الوثيقة الرسمية التي صدرت في عام ١٩٢٢ أن أعلنت أن تصريح بلفور لا يرمي — ولم يقصد به أن يرمي — إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. والحكومة البريطانية لا تقبل مثل هذا التأويل ولا تقره. ولكن هذا البيان لم يمح الشكوك التي لا تزال قائمة. ولهذا فإن حكومة صاحب الجلالة تعلن اليوم بكل قوة أنه ليس من سياستها — ولم يكن في سياستها في أي وقت — أن تجعل فلسطين دولة يهودية. بل هي ترى أن مثل هذا الأمر مناقض تمام المناقضة لالتزاماتها نحو العرب في صك الانتداب، ومناقض للعهود المقطوعة للعرب في مناسبات عديدة».

ذلك ما جاء في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩، وهو الوثيقة التي تشتمل على الخطة النهائية، التي قررت فيها الحكومة البريطانية السياسة التفصيلية التي تنوى اتباعها في فلسطين، تلك الخطة التي اهتدى إليها سياستها بعد التجارب القاسية التي مرت بالقطر الفلسطيني وسكانه في مدى تسعة عشر عاما. وقد التزمت الحكومة البريطانية أن تمضي في تنفيذ هذه السياسة، التي كانت وليدة التفكير الطويل والمشاورة بينها وبين اليهود من جهة، وبين العرب من أهل فلسطين، وممثلي الأقطار العربية — ومنها مصر — من جهة أخرى.

وتتلخص السياسة التي تعهدت بريطانيا بتنفيذها في ثلاثة أمور: أولها أن تنشيء في فلسطين حكومة دستورية وطنية بعد مضي عشر سنوات، وأن تمهد لذلك بعد انقضاء خمس سنوات من استتباب الأمن في فلسطين. الثاني: أنها لن تسمح بالهاجرة إلى فلسطين لأكثر من ٧٥,٠٠٠ يهودى وذلك في بحر خمس سنوات ابتداء من أبريل عام ١٩٣٩ إلى نهاية مارس عام ١٩٤٤. وثالثها: تنظيم بيع الأراضي، بحيث لا يتعرض العرب لضروب من الشدة والإرهاق بسبب إقبال اليهود على شراء أرضهم.

إن هذه الوثيقة الصريحة هي عهد مقطوع من الحكومة البريطانية. وجميع الشعوب العربية تتطلع بشيء غير قليل من الاهتمام، لكي تراها تفي بهذا العهد وفاء صريحا لا مواربة فيه ولا مداورة. ففي نهاية شهر مارس المقبل تنتهي الفترة التي يسمح فيها لليهود بالهاجرة إلى فلسطين. وبعد نحو شهرين يحين الوعد الذي تعهدت فيه حكومة بريطانيا بأن يشترك الفلسطينيون في حكم بلادهم، وأن تنشيء نواة الحكم الدستوري فيها.

ليس من شك في أن الحكومة البريطانية تتعرض اليوم لضغط شديد من هيئات وأفراد ذات نفوذ كبير، بقطع النظر عما تقوم به جماعة الإرهابيين في فلسطين نفسها ولكن السياسة الحكيمة تقضي بأن تمضي بريطانيا في تنفيذ ما تعهدت به. لأن هذا أمر لا يرتبط بعلاقتها من الشعوب العربية وحدها بل هو متصل بمركزها الدولي كله، وبسمعتها بين شعوب العالم في هذا الوقت العصيب.

محمد عوض محمد

المـــلاريا

للدكتور أحمد زكي بك

حدثتُك عن جرثومة الملاريا ، كيف تدخل جسم الإنسان ، فتطلب خلايا دمه الحمراء لتسكنها . ثم وصفت لك كيف تتطور هذه الجرثومة في هذه الكرات أشكالاً مختلفة تنتهي بفقئها هذه الكرات ، ثم خروجها عنها ، ذريّةً جديدة من الجراثيم أضعافٌ تلك التي دخلت هذه الكرات أول مرة .

واليوم أحدثك عمّا تصنع هذه الجراثيم في جسم البعوضة بعد أن حدثتك عما تصنع في جسم الإنسان .

وقد يكفي أن أقول لك إن البعوضة تخرق جلد الإنسان بأبرتها ، ثم هي ترتشف من دمه بفمها ، فيدخل هذا الدم بالذي فيه من جراثيم إلى جسم البعوضة ، ثم هي تعيد هذه الجراثيم إلى دم رجل آخر عند ما تجوع مرّة أخرى فتطلب الطعام .

ولكني بهذا أكون قد ضيعت عليك صورة يقف عندها الفكر يتأملها في مُتعة غير يسيرة ولا ضئيلة ، وأكون في سبيل البساطة قد حجبت عنك وجه الحقيقة الجميل .

فاعلمْ أن الجراثيم التي تدخل جسم البعوضة هي غيرُ تلك التي وصفتُ لك في دم الإنسان . فتلك التي في دم الإنسان جراثيم من نوع واحد ، جراثيمُ سواسيةٌ ، تتكاثر بالتشقق أنصافاً وأرباعاً وأثماناً . وليس فيها ذكر أو أنثى ، فليس فيها تلقيح ، وليس فيها بيض ، وليس فيها حَمل ، ولا شيء غير الانشقاق .

وهذه الجراثيم تعلم هذا من نفسها ، وتعلم أنه لا فائدة من دخولها إلى جسم البعوضة على هذا الحال . فجسم البعوضة يجب أن يكون التكاثر فيه ، لا انشقاقاً ، ولكن تلقيحاً . يجب أن يكون التكاثر فيه بين ذكر وأنثى ، وإذن وجب على هذه الجراثيم ، وهي في دم الإنسان ، أن تخلق من نفسها هذا الذكر وهذه الأنثى .

وهي تفعل هذا عن طيب خاطر .

ففي طور من أطوار الحمى في دم الإنسان ، بينما أكثر الجراثيم يتوالد في الكرات الحمراء انشقاقاً ، وبذلك يخلق حشداً عظيماً ، وجيشاً عرمرماً ، يغزو تلك الكرات فيفقأها ألوفاً من بعد ألوف ، تجد طائفة من هذه الجراثيم اشتغلت ، في سبيل حفظ النوع ، بتحويل نفسها إلى جراثيم جديدة ، بعضها ذكور وبعضها إناث . وهذه إذا تكونت ظلت في مكانها من دم الإنسان تنتظر البعوضة حتى تجيء في طلبها . ومن العجيب أن هذا الذكر وهذه الأنثى ، على وحدة الدار وقرب المزار ، لا يتزاوجان في دم الإنسان أبداً ، فإذا جاءت البعوضة فشربت من دم المريض ، حملت الزوجين فيما حملت من دماء .

وهذه الذكور وهذه الإناث إذ تنشأ في كرات الدم بجسم الإنسان أول ما تنشأ ، تنشأ صغيرة بداخل هذه الكرات ، حتى لا يكاد الناظر يفرق بين ذكرها وأنثاها ، فإنما هي عند ذلك أجنّة في أرحام (شكل ١ حرف ا) . ثم يأخذ الذكر في الكبر ، وتأخذ الأنثى في الكبر حتى تملأ كل منهما كرته الحمراء أو يزيد عنها . ويتشكل الذكر غير تشكل الأنثى (شكل ١ حرف ب) . ويتشكل ذُكران حمّى الثلث الحميدة غير تشكل ذُكران حمّى الرّبع . ويتشكل ذُكران حمّى الرّبع غير تشكل ذُكران الحمى الخبيثة . وكذلك تختلف الأشكال في إناث هذه من إناث هذه وتلك . وينتفع الفاحص الميكرسكوبي من اختلاف هذه الأشكال تحت المجهر في تعرّف نوع الحمّى .

وتدخل الذكور وتدخل الإناث في الدم المرشوف إلى جوف البعوضة ، فلا يلبث الذكر أن يفقع كرته الحمراء ، ولا تلبث الأنثى .

أما الذكر فتنفقع كرته عن خيوط كأطراف الكرابيج

تأخذ تسبح في سائلها تبحث عن الأنثى لتلقحها (شكل ١ حرف ح) . وأما الأنثى فتنفقع كرتها الحمراء فتخرج منها قوراء كالقمر (شكل ١ حرف ﻫ) .

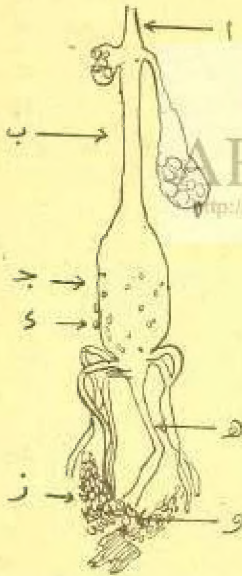


(شكل ١)

ويتزاوج الاثنان (شكل ١ حرف ﻫ) فيتكون منهما جسم (شكل ١ حرف و) يتشكل ويستطيل حتى يصير كالدودة الصغيرة (شكل ١ حرف ز) ، وهى دُوَيدة سبّاحة ، فتأخذ هذه الدُّويدة تسبح تطلب جدار المعدة من البعوضة . فإذا وجدت هذا الجدار دخلته ، فاستوطنته . وفى هذا الجدار تتكور (شكل ١ حرف ح) ، ثم هى تقضى فيه ستة أيام أو نحوها يزداد فيها حجمها زيادة عظمى حتى ليبلغ قطرها ما بين ٣٠ و ٤٠ مليمليمترا . وتظهر فيها فجوات فتتراءى كالإسفنج (شكل ١ حرف ط) . ثم يتحول جوفها فينقسم إلى عِصِىّ (شكل ١ حرف ى) . ثم ينفقع الغلاف عن هذه العصىّ ، فتخرج كالدود استطالة (شكل ١ حرف ك) . وهذه تغادر جدار المعدة من البعوضة فتدخل فجوة هذه المعدة . ثم من المعدة تذهب إلى الغُدَد اللُّعابية للبعوضة . وتعضّ البعوضة رجلا لتشرب من دمه ، فيتلوّث دمه بلعابها ، فتدخل دمَه تلك الجراثيم ، وهى إذا دخلت دمه تكوّرت كالبذور .

وتنسى هذه البذور أنها تكوّنت من أب وأم ، فتأخذ تحشد حشودها ، وتجيّش جيوشها ، لا بالتزاوج كما فعل آباؤها ، ولكن بالانشاق على ما وصفنا فى المقال السابق . والتكاثر بالتزاوج بطىء لا يُسعف . والتكاثر بالتشقق سريع ، وهو حيلة الحيوانات الدنيا ، والنباتات الدنيا فى مغالبة الحياة ، وهى حياة لمَمشوّ لك شديدة قاسية .

وكما أن الفاحص يستطيع تحت المجهر أن يتبين أطوار الجراثيم فى دم الإنسان ، فكذلك يستطيع هو أن يتبين هذه الذكور وهذه الإناث وما ينتج عنهما . ويتبينها فى معدة البعوضة وفى غُدَدها اللعابية .



(شكل ٢)

جسم البعوضة — ا : المرىء — ب : جزء المعدة الأمامى — حـ : جوف المعدة — د : الجراثيم فى جدار المعدة — ﻫ : الأمعاء — و : الاست — ز : المبيض وفيه البيض

وأقبِنك أن تستصغر البعوضة ، فتُنكر أن يكون لها معدة ، ولها غُدَد ، ولها أعاب . فاعلم أن لها غير ذلك فم كفمك ، ومرى كمريئك ، ومعدة كمعدتك ، وهضم كهضمك ، ولها ما يسمّى كأمعائك ، ولها مخرج كمخرجك . وكل هذه يُفصّل بعضها من بعض بإبرة التشريح تحت العدسات .

فهذه دورة حياة الجرثومة في دم الإنسان .

وهذه دورة حياتها في جوف البعوضة

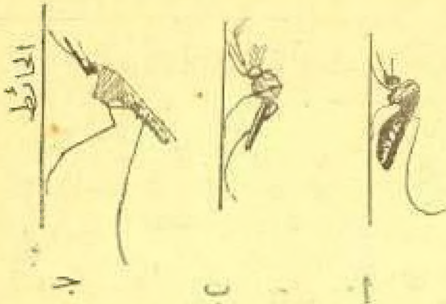
فما بال حياة البعوضة نفسها ، وما أطوارها ، وما صلة هذه الأطوار بحمى الملاريا ؟

ألا فاعلم أنه ليس كلّ البعوض ينقل عدوى الحمى . وأن الذى ينقلها جنس من البعوض أطلقوا عليه إسم : أنوفاليس anophales . وهذا الجنس ضروب عدة تبلغ نحو المئتين ، تختلف فيما بينها اختلافاً يسيراً ، ولكنها تشترك في مقدار من الصفات تكفي لأن تجمعها جميعاً في جنس واحد .

وبعوضة الأنوفاليس ، كسائر البعوض ، تتطور من البيضة ، إلى الدودة ، إلى العروس ، إلى البعوضة البالغة .

ولنبدأ بالبعوضة البالغة لأنها هي الطور المعروف المألوف .

وأول شيء تستطيع أن تميّز به هذه البعوضة إذا ظهرت في منزلك هو وضعها على الحائط . فهي تميل رأسها إليه ، وتبعد ذيلها عنه ، وأنت ترى جسمها كأنه في خط واحد يصنع زاوية مقدارها ٤٥° درجة أو نحوها مع الحائط ، فكأنها تريد أن تنطح الحائط أو تخرقه (شكل ٣ رقم جـ) . أما الأجناس الأخرى من البعوض فلها أوضاع غير هذه (شكل ٣ حرف ب ، أ) . وفي هذه الأوضاع الأخرى تجد الجسم كله ليس في خط مستقيم واحد .



(شكل ٣)

وتجد البعوضة تميل إلى الحائط بذيلها وبطنها لا برأسها .

ومما تتميز به بعوضة الأنوفاليس ترقّط أجنحتها . فلو فحصتها عن قرب وجدت بالجناح نقطاً قاتمة على أرضية فاتحة . وهذه النقط القاتمة بيّنة ظاهرة لا سيما في ما يوجد في ضروب هذه البعوضة في مناطق الاستواء .

وبعوضة الأنوفاليس تتميز بغير هذا . ولكنها تفاصيل تخص الرجل الحشري أكثر مما تهم القارىء العادى .

فهذه هي البعوضة البالغة .

أما البيضة .. وأما الدودة ... وأما العروس ...

أحمد زكي

زعماء الإسلام في القرن التاسع عشر:

٢ - السيد أحمد خان

١٨١٧ — ١٨٩٨

عاد السيد أحمد من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين في الهند عقلا ودينا ولغة وخلقا واجتماعا ، سواء في ذلك خاصتهم وعامتهم ، وصمم على أن يغزو الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين بكل الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة في علومها وفنونها قبولا حسنا ويستخدموها في ترقية حياتهم ، وأن يبذل الجهد في التوفيق بين الإسلام والمدنية ؛ فالإسلام في جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل ، غير متناقض لما يثبته العلم ، فإذا نُسّق مما لحقه وليس منه أمكن أن يُقبل المسلمون على العلم الحديث من غير حرج .

وضع من أول خططه بعد عودته أن ينشئ في الهند جامعة تكون للمسلمين كأكسفورد وكمبردج في إنجلترا ، تربي الخاصة ، ثم هم يربون العامة . وطاف البلاد يدعو ويجمع المال ، ويكافح العقبات توضع في سبيله ، وأخيرا فاز بإنشاء كلية عليكره المشهورة ، وحدد لها أغراضا ثلاثة :

(١) أن تمزج للمسلمين الثقافة الغربية والشرقية في غير تعصب ولا جمود .

(٢) أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية ، فيجدوا فيها سكنا يقيهم شرور المدن ومفاسدها ، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — على أنهم في بيئة صالحة لخلقهم ، مرقية لآدابهم .

(٣) أن يعنى في نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معا ، وبعبارة أخرى أن يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط .

وتم بناؤها ، واستقبلت طلبتها ، تعلمهم على النهج الذي اختطه ، ونجحت في خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة مع سعة في العقل وسماحة في الدين ، وانتشر خريجوها في أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم ، وأصبحت كلمة « عليكره » لا تدل فقط على كلية أو جامعة ، وإنما تدل أيضا على نوع من العقلية الراقية والصبغة العقلية والاجتماعية الخاصة .

لقد أخذ الوطنيون من المسلمين على خريجي هذه الجامعة وطلبتها أنهم لا يشتركون في الحياة السياسية مع فضلهم وسعة عقلهم وغزارة علمهم ، حتى أنهم لا يضربون يوم تضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسي . ولكن هذه هي الصبغة التي صبغ بها السيد أحمد طلبته : إقبال على العلم وبعد عن السياسة .

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل في اتجاه آخر ، فأنشأ مجلة دورية سماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية في جرأة وصراحة ، وأخذ يفسر القرآن ، ويدعو ، إلى أن القرآن — إذا فهم فهما صحيحا — اتفق مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته ، وأنه يجب أن يفسر على ضوء العقل والضمير .

وتطرف أكثر من ذلك فكان يقول بأن الوحي كان بالمعنى دون اللفظ ، ذاهبا في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السيوطي في الإتقان إذ قال : « وذكر بعضهم « أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب ، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك »[1] .

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين وهيجوا عليه العامة ، وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يطعنه مرة بخنجر فنجا منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتا جريئا في دعوته كما هي ، لم يتزحزح ولم يداج ولم يمار ، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول ، وما ينشر .

(١) وردت هــذه العبارة في الاتقان ص ٤٥ جزء أول بالطبعة الكستلية .

لا يعبأ بنقد ، ولا بتهديد بقتـل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئـة خطيرة ، كذلك كانت ناحيته السياسية ؛ فكان يرى أن الغرض الذى يجب أن يرمى إليـه السياسى الهندى هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط ، ولـكن هذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر فى الوطنية ؛ فيجب أن يكون عند كل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، ووطنيتها العامة عند كل الطوائف . أما النزاع الطائفى الدينى ، والنزعة إلى تقسيم الهند حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدى إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين فى العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفى كل الملل ، وقال : « فى قطر كالهند تتقسمه الطبقات ، وتتوزعه النزعات الدينية الحادة ، ولم تنتشر فيه التربية الصحيحة التى تعد الناس فيه كلهم سواء فى الحقوق والواجبات ، أرى ، بل أعتقد أن الانتخاب والتمثيل فى المجالس ضرره أكثر من نفعه » . ولهذا رفض أن يشترك فى المؤتمرات السياسية ، والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء ، ووجه كل همه فى أحب الأعمال إليه من اشتراك فى المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهى أن يجمع مؤتمرا كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين فى الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام فى مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التى يرونها نافعة فى ذلك ، وكان الغرض الذى يرمى إليه « السيد » منه بث روح الائتلاف بين المسلمين فى البلاد الهندية وتبادل الآراء فى خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نفذ الفكرة ونجح المشروع ورأس السيد المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه .

لقد سيطرت روحه على المؤتمر فى حياته وبعد مماته ، وهى روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربية ، وأخذ كل شىء حسن فيها ، وخصوصا العلوم والآداب . « إن النور اليوم يأتى من الغرب بعـد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوروبا علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان فى مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » . إن « التعليم كان فى الزمن الماضى دينيا محضا لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف فى الأولى وأخل بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » .

« إن العلم اتخذ شكلا جديداً ؛ فلم تعد طبيعيات أرسطو ولا نظريات ابن سينا ولا جبر الخيـام ولا كيمياء جابر بكافية ، وهى لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية » .

واهتم المؤتمر بالتربية وشؤونها ، ينقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصلاح ويضع نصب عينه كلية عليكره « حتى تصل إلى درجة تساعد على ترقية النشء وتهذيبه ، وحتى تصل إلى درجة تـكون فيها منبع العـلوم ومحط الرحال للطلبة من جميع الأقطار الإسلاميـة ؛ وليس من البعيد عند ذلك أن ينبغ فيها أمثال : ابن سينا ، وابن رشد وغيرهما من العلماء السـابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويبحثون فيها وينهضون بها ، فإن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الـكيماوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية ، يعيدون لنا سالف مجدنا القديم فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة ، وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتباً فى علم الهيئة الحديثة ؛ وهكذا » .

« والذى نريده أن ينشأ أولادنا فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب » .

عليكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القـديمة ، وأخلاقكم الوخيمة ، واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتـكم التى تسيرون فيها .

«يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية فى معارفهم، وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والأقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل؛ ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل إلا اقتطاف علومهم، وإدخال مدنيتهم ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا الزدحم الشديد إلا التكافؤ»

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده فى المؤتمر الهندى الإسلامى وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه(١).

لقد ظل حياته يكافح فى سبيل المسلمين فى الهند كفاحاً شديداً وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدان وطنية، وأنه آلة إنجليزية. شجاع فى مقابلة كل ما يقف فى سبيله يجتاحه اجتياحا. يرى أن المسلمين مرضى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية. فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنيّ، وناموا على الفراش الوثير فى المسكن الفسيح؛ فعمل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وفقر؛ وكذلك كان.

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة حديثة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة، ورأوا كلية عليكره تنتج فى البلاد حركة فكرية بديعة، وتؤلف الكتب القيمة فى أسلوب جديد قويم، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها، فآمنوا إذ ذاك بأن «السيد أحمد» مصدر نعمة وبركة، لا كارثة ونقمة. وإن اختلفوا معه فى بعض آرائه.

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة فى اللغة الأردية. لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية فى عهد الظلام: عشق وغرام ومديح، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن، فنقلها إلى آفاق واسعة وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع والأخلاق والدين والتاريخ والأدب، فى أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة، غزير بالمعنى خال من التصنع.

لقد بدأ «السيد» حياته فى اللغة الأردية شاعراً. فكان شاعراً عاديا لم يلفت النظر إليه، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحا مبينا، وبدأ ذلك فى جريدته التى أنشأها واسمها «سيد الأخبار»، فلما أنشأ بعدُ جريدة «تهذيب الأخلاق» بلغ فى ذلك الغاية وائتمّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد، فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل، وبذلك أخذ الأدب الأردى يشق طريقه إلى التقدم. يقول هو فى ذلك:

«لم آل جهدا فى ترقية العلم والأدب باللغة الأردية على صفحات جرائدى المتواضعة، واتخذت فى ذلك أسلوبا يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف. تجنبت فيه الألفاظ الرنانة والاستعارات والكنايات الوهمية التى تنحصر فى الشكل ولا تتصل بالقلب، وجهدت فى تشويق القارىء إلى ما أكتب فيه، ونقل مشاعرى وعواطفى إلى مشاعره وعواطفه».

وتعددت موضوعات كتاباته فطارق كل موضوع، وعالجه معالجة من يلقى عليه ضوءا كاملا لا يتركه حتى يكون واضحا جليا فى جميع جوانبه.

ثم وجّه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها، ونقل كثيرا من خير ما فى الآداب الأجنبية إليها. وكان له رأى فى الترجمة إلى اللغة الأردية بديع، وهو عدم التقيد بالحرفية فى الترجمة، ويرى أن هذا أسلوب واه ضعيف وإنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضا جديدا بطريقة تتفق وذوق الهنود وتلائم أفكارهم. ولم تكن اللغة الأردية تشتمل على مصطلحات علمية، فجد فى صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ووضع المصطلحات، وسار على هذا النهج طلبته.

قال الأستاذ شبلى النعمانى — عالم الهند العظيم —:

«طالما كان النزاع بينى وبين السيد أحمد شديدا فى آرائه الدينية، وطالما فندت آراءه، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالى الذى استخدمه فى شرح أفكاره، فكان أسلوبا رائعا منقطع النظير مملوءا بالفكاهة الحلوة والتنادر الظريف.

حدث مرة أن مولوى على بخش نقده نقدا مراً، ثم

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر الهندى نشرت فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦، وسنة ١٩٠٢.

ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علمـاء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد في « تهذيب الأخلاق »

« ما أعجب إلحادي ، قد جعل مني كافراً وجعل منه حاجاً مؤمناً . إني إلى شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خرب بيتي بيتُ الأوثان ، قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن إلحادي كالأمطار تخرج أحسن الورود في البستان ، وأخس الكلأ في الوديان » .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدته « تهذيب الأخلاق » كتب في آخر عدد منها :

- طالما طرقت باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغى ، وإن تخبطوا عند انتباههم وترنحوا يمنة ويسرة ، فرحلة لا تستوجب الرضا ، ومع ذلك تستوجب الأمل في يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعند ما ترى الأم طفلها مريضا تلح عليه أن يشرب الدواء المر وهو يلح : دعيني يا أماه قليلا فسأشربه بنفسي .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام حتى يستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المراض اشربوا اشربوا حتى يبرأوا ، لا أكلّ ولا أملّ .

وظل كذلك يدق الباب ويلح في شرب الدواء حتى أدرك الناس أخيرا جدا أنه قام بعمل جليل في لغة قومه ، وعقليتهم ، وتعليمهم ، وتربيتهم ، مهما عابوه في بعض تعاليمه الدينية وبعده عن التدخل في السياسة القومية .

فلما زار البنجاب في آخر حياته استقبل استقبال الملوك الفاتحين والغزاة القاهرين بل المصلحين الناجحين ، وأنساه نعيم الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الثانية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه فبكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما يكون من أمثله شجاعته التي لا تحد في تنفيذ خطته وصراحته البالغة في الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ بنقد الإنجليز في ترفعهم ، والوطنيين في تخلفهم ، ورجال الدين في جمودهم ، ورجال السياسة في تخيلهم ، على حد سواء . ويبكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملي لا يكتفي بالنظريات والمبادىء يثيرها ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسعى ويكدح وراء مبادئه حتى يخرجها في بناء وفي طلبة وفي معمل وفي مؤتمر وفي مجلة وفي درس . وهي ميزة ندر أن تكون في المصلحين . ولذلك كانت نتيجته في إصلاحه عملية كبيرة . فلو رأيت مسلمي الهند أيام سلفهم وأيام خلفهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجات في العلم وفي الفكر وفي الخلق وفي اللغة وفي الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا إن تاريخ المسلمين في الهند قد تحول واتخذ اتجاهاً جديداً في حياته ومجيئه لم تعد الصواب .

ثم نرى في بعض المصلحين عيباً كبيرا وهو أنهم لا يرتون من يحمل عنهم ويكمل خطتهم ؛ وكثيرا ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التي لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى تظهر بجانبهم فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التي تعقد الملق والنفاق وتغذى بأمورها وبأمثال عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفر منهم الشخصيات القوية لأنها ترى في نفسها نداً أو شبه ند لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم ، أو تتصنع النفاق للقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الرؤوس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوي جبار في اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف ، باذل الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم ويستعملوا حقهم في صراحتهم ، كما يستعمل حقه في صراحته .

ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ويسلك منهجه ويحمل رايته ويصلح ما أخذ عليه من مثل : سراج علي ؛ والسيد أمير علي .

وأظن أن من الخير الوقوف عند هذا الحد حتى لا نمل القارىء ، على أن نعود إلى الموضوع بعد إن شاء الله .

أحمد أمين

صيد من بلاد الشام

٤ — لا تعاقبوا المجرمين لأنهم مرضى !

وهذا حديث فيه من الإمتاع ، قدر ما فيه الإبداع ، أصغى إليه ، في الجامعة السورية ، طوال ساعة ونصف ساعة ، صفوة من قضاة دمشق ، وأطبائها ، ومدرسيها وأهل الدراية فيها . أما المحدث فطبيب مشهور ، ووزير مذكور . وأما الحديث فهو : « الدوافع التي تدفع إلى الجنايات ، والأمراض التي تسوق إلى الجرائم » :

وحديث كهذا ، فيه نظريات العلماء ، وتجاريب الأطباء ، ونظرات المتفلسفين ، وفيه نقد لهذا المجتمع الضال بأبنائه ، ووصف لهؤلاء الأبناء النكوبين بعقولهم ، الناقصين في خلقتهم ؛ حديث كهذا جدير بأن ينشر ، خليق بأن يلخص ويذاع .

بدأ المحاضر حديثه بالسؤال : لماذا يجب البحث في الدوافع المرضية في الجنايات والجرائم ؟ فذكر أن الأمم كلما مضت في الرقي الاجتماعي ، أمعنت النظر في الدواء التي يصاب بها الأفراد ، وتؤثر في المجتمع ؛ لأن البشر لم يخلقوا ليكونوا مجرمين جناة ، وليس الشر عندهم ، فلا بد من علة تشوقهم للجريمة ، وتسوقهم إلى الجناية . فإذا عرفت هذه العلل ودرست ، ثم اتخذت الوسائل لدوائها ، والوقاية منها ، والابتعاد عنها ، والشفاء منها ، قل الضرر ، عندئذ ، وخف الفساد .

لقد كانت دراسة الجنايات والجرائم في الزمن الخالي ، تتناول نتيجة العلة التي دفعت إلى الإجرام . أعني الجريمة نفسها ، وكانت لا تحفل بالعوامل النفسية ووصفها . وكان حكم الحاكم ينحصر في تعيين نوع الجرم ، وتقدير العقوبة التي تجب له ، أملا بإصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج . فكان العقاب غرامة يخسرها الجاني ، أو زمنا يفصل فيه عن الناس ليحرم ما كان له مباحا ، أو عذابا يقترن بالسجن فيمنعه من العود إلى الجرم عودة أخرى ، أو قتلا يذهب به من هذه الدنيا ، حيث لا يصلح أن يكون فيها . وفي هذه الأحوال كلها كانت الجنايات تنتهي بقصاص وليس مداواة . فلما ارتقت معارف البشر ونالوا من الرقي طرفا ، وتقدمت العلوم الاجتماعية ، وتناول الطب الشرعي والفلسفة الروحية درس هذه المسائل الدقيقة ، تبدلت نظرة ذوي الشرائع الاجتماعية ، إلى الجريمة . وأخذوا ينظرون إلى الحوادث نظرة تختلف عن النظرة الأولى . مقدرين الوجهة الاجتماعية ، والنفسية ، والأخلاقية . فغدت الجريمة مظهرا مفاجئا لأمر نفسي ، تدفعه علل مرضية ، يجب وصفها ومنعها قبل ظهورها ، أو مداواتها والشفاء منها بعد ذلك . ومن ثم تنبهت البلاد الراقية إلى هذا ، فجعلت من السجون التي كانت مأوى البؤس والشقاء ، مشافي للإصلاح والمداواة ، لأن التهذيب أصلح للمجتمع من التعذيب .

إن الجنايات كأمراض الجسم ، لا تقع ما لم يتوفر عاملان . الأول : أحوال خاصة في الأفراد ، والثاني : الاستعداد في المجتمع . أما الأحوال الخاصة التي تسوق الأفراد إلى ارتكاب الجرائم ، فهي الدوافع المرضية التي تسيطر على المريض فتوجه أفكاره وتقيد إرادته ، وتدفع به إلى ارتكاب أعمال يراها القانون جريمة .

وإذا تكلمنا عن هذه الدوافع ، فلا بد من أن نستفيض بحثا فيها ، لمعرفة أسبابها وأعراضها ، وآثارها ونتائجها . ولكي نعلم علاقتها بالقانون وصلتها به ، ونعلم بعد ذلك ، كيف ينظر القضاة إلى رجل مجرم ، كان مجنونا ، أو معتوها ، أو أبله ، أو مريض العقل ؛ أينظرون إليه كما ينظر الطبيب الاجتماعي ، أو الفيلسوف أو العالم النفسي ، فيتناولونه بالإرشاد والإصلاح ، ويرسلونه إلى المستشفى ليبرأ ، أم يدفعون به إلى القصاص والتعذيب والقتل ؟

« ما هي الأسباب التي تدفع إلى ارتكاب الجريمة ؟ »

وإذا أمعنا النظر في أسباب الجريمة ، رأينا أن الإنسان يجرم ، إما خطأ ؛ كرجل رام أن يصطاد طيرا فأخطأ مرماه ، فصاب رجلا ، أو لأمر لا حول له على رده ، كمن رأى شرفه ينتهك . أو عرضه يستباح ، أو حياته تهدد ، فهاج وماج ، فقتل . أو كان تحت تأثير غضب شديد ، أو هيجان بالغ ، أو انفعال نفسي ، غشي على عقله ، فلم يجد رادعا يخفف هيجانه ، فاستيقظ

فيه حب الانتقام ، فأجرم . أو مجنون حدث بلاد ، ورافقه هذيان ، وصور وهمية ، ودوافع مرَضية تدفعه للجناية . أو لمرض فى العقل ، يجعل صاحبه شاذاً عن سائر الأفراد الأصحاء ، فى إدراكه وشعوره ، وحسّه . أما الأسباب الأولى ، فإنما يرتكب الإنسان فيها الجريمة تحت تأثير خارق أو ضرورة ملجئة . أما النوع الأخير ففيه الخطر كله ، لأن الدوافع المرَضية التى جعلناها موضع حديثنا ، لا تظهر لكل إنسان . والمصابون بها منتشرون فى كل مكان ، ولأنها تسوق إلى الجريمة ، فيكون صاحبها ضحية المرض الذى فتك به ، وضحية الحاكم الذى حكم عليه ولم ينظر إلى مرضه . تُرى ما هى أسباب هذه الدوافع ؟

أسباب هذه الأمراض

ذكر علماء النفس أن الوراثة من الأسباب ذات الشأن التى تدفع للإجرام . واستدلوا على ذلك باكتشافات (ماندل) . لقانون الوراثة ، وتدقيقات (مورل) — أحد فلاسفة التربية — فى الأمراض العقلية

وإلى جانب الوراثة ، ينبغى أن [illegible] تستدعى المرض العقل وتدفع إليه [illegible] والإفراط فى الشهوات ، وإدمان المسكرات [illegible] وداء الزهرى ، وسوء نمو الجسم إبان الطفولة . فهذه — كلها — أسباب منقصة للعقل ومضعفة له ، تجعله يقبل الأمراض ، وتجعل صاحبه مريض العقل . ولكن مَن هو مريضُ العقل ، الذى يقترف الجرائم بسبب مرضه وكيف نعرفه ؟

مَن هو مريض العقل ؟

مريض العقل هو ذو الانحراف عن الأنموذج الصحيح للإنسان . ويُعرف بفقدان التوازن بين مراكز الدماغ ، فيبدو لا انسجام بين تفكيره ، وعواطفه ، وإرادته ، وحركاته ، وأعماله . ومرضى العقول ، أنواع متنوعة . يختلفون فى الظاهر ، ولكنهم يتفقون فى الباطن ؛ لأن لهم جميعاً نفساً واحدة مريضة ، فتوازنهم مختل ، ونموهم مضطرب . وقد تجد فيهم ذا الحافظة القوية ، ولكنك تراه لا يستطيع أن يسخرها عند البحث فى أمر أو التفكير فيه . وقد ترى أحدهم لا يثبت فى أمر ، ولا يقدر على عمل ، فإذا بلوته ألفيته كل يوم فى واد ؛ فهو شاذ الأحوال ، غريب الأفكار . وقد تلقى بينهم ذا الأحلام والأوهام والأخيلة ، الغارق فى أوهامه وأحلامه ، لا يفارقها ، ويأنس بها . أو تجد الأنانى ، ذا الأثرة البالغة ، المفخِّم مواهبه ، المحتقر غيره ، أو تصادف ذا الأخلاق الفاسدة والآراء التى لا يقبلها عقل ولا مجتمع ولا دين .

فأناس كهؤلاء ، تسوقهم دوافعهم المرَضية إلى الجريمة ، وتستحوذ عليهم ، فقد يقتلون أو يسرقون أو ينتهكون الأعراض . ولكن كيف يُساقون ، بل كيف تستحوذ الدوافع عليهم ؟

ما هو الاستحواذ olesession وكيف يكون ؟

تغزو العقل أفكارٌ وصورٌ مختلفات ؛ فيقبل بعضاً ويقاوم فى دخول بعض آخر . ولكنّ هذه الصور تعود قوية [illegible] فإذا كانت الإرادة قوية أيضاً استطاع صاحبها [illegible] التفكير ، وهذا يُسمى (الاستحواذ الطبيعى) لأنه لا يحمل [illegible] دوافع مرضى . أما إذا ضعُف العقل وكانت الإرادة ضعيفة ، طافت الأفكارُ والصورُ الغازية ، وطردت الأفكار والصور السابقة ، واستحوذت على العقل وما فيه ، بعد عراك وألم روحى . وهذا يُسمّى (الاستحواذ المرَضى) ، لأنه غير طبيعىّ . دخل فأثّر فاستحوذ . وقد يستعبد هذا الاستحواذ الإرادة . وقد يقوده إلى حيث يهلك . والإنسان يعلم ما يجرى فى نفسه ويعلم اضطراره إلى مسايرة تلك الآراء والصور ومسايرتها ، وارتكاب ما لا يرضاه وجدانه وهو يأبى ندائها ويطيعها ، ويخضع لها.

ويتصف الاستحواذ المرضى بصفات ثلاث :

١ — الصحو بالنظر للحادث .

٢ — النزاع القوى بين الأفكار السابقة والصور اللاحقة . ٣ — العذاب الروحى فى أثناء ذلك

ويُلازم الدوافع المرَضية أعراض لا يُفارقانها . الأول : عمل خيالى يصدر عن مركز منعزل عن الذهن دون اشتراك القوة البرهانيّة Reasonning ، والثانى عجز مؤقت فى الإرادة الحاكمة Self-Control .

ولكن متى يظهر سلطان الاستحواذ ويبدو أمره ؟

أوقات الاستحواذ

ويظهر سلطان الاستحواذ عند شدة الغضب ، ونهك القوى العقلية بالتفكير الدائم الطويل ، وعند الإفراط في الشهوات والملذات . أو عند إدمان المسكرات والمخدرات ، كالحشيش والكوكائين والمورفين ، وعند قراءة الروايات الجنائية التي تستولي على العقل بحادثاتها ، وتوقظ حس الإجرام ، أو إثر نزف دموي في النساء . وقد ساق المحدث أمثلة شتى نذكر منها أن امرأة تخطت الخامسة والثلاثين من عمرها ، أسقطت جنينها مرات . وصحب الإسقاط نزف دموي نهك قوتها ، وكانت أمها تدمن الخمر ، وكان أبوها مصابا بالزهري ، وجدها قد فلج في آخر عمره . تزوجها قصاب شديد البأس ، فكانت تساعده على تشريح اللحوم وتقطيعها ، وفي ذات يوم ظهرت دوافع الجريمة فيها ، فبينما كانت تقطع اللحم شعرت بميل قوي إلى قتل رجل كان أمامها ، وعاودت مشاعرها واستحوذت فكرة القتل عليها ولكنها لم تكن عملها حاول صد هذه الفكرة فلم يفلح ، فلما تغلبت عليها المقاومة وأشهرت المدية وهمت بالقتل ، أخذت تجهش بالبكاء ، ثم سقطت على الأرض تنادي : أدركوني ، أبعدوه عني ، كيلا أرتكب جناية .. !

وحدث في (حلب) أن معلما ضعيف العقل ، هام بتلميذ له . فتدلل التلميذ وعقر وجع المعلم في الهيام به وحبه ، فاستعطفه ، وذل له ، كي ينال منه ما يشتهي ، فأبى التلميذ عليه ما أراد . وحدث أن نقل المعلم إلى قرية بعيدة ، فكان يرد حلب كل أسبوع ليرى محبوبه وغلامه . فلما يئس من عطفه ، وخشي أن يتعلق به غيره أو يتمتع به سولت له نفسه أن يقتله [1] . وفي ساعة من ساعات جنونه ، استحوذت فكرة القتل عليه ، فترصده حتى مر ، وطعنه طعنات في قلبه ، فخر صريعا ، وعند ما قبض عليه أقر بما فعل ، وطلب أن يقتل فداء عنه .

(١) هذا يشبه ديك الجن الذي ذبح محبوبته كي لا يتمتع أحد غيره بها .

وأشباه هذه الحوادث التي تجري في حياة المجتمع سببها مرض العقل ، ووجود الدوافع المرضية واستحواذها على المريض . وقد تسوقه هذه الدوافع إلى السرقة ، ولو لم يكن ذا حاجة ، أو إلى استباحة أعراض الناس ، ولو كان محصنا . أو إلى حرق الدور ولو كان ذا دور وقصور . وهم ، جميعا ، يرتكبون ما يرتكبون ، وهم يعلمون حقارته ودناءته ، ولكنهم يساقون ، ثم يستسلمون ، ويغلبون على أمرهم ، للأسباب التي مر ذكرها وراثية كانت أم مرضية أم كسبية .

نتائج الاستحواذ

إن مظاهر الاستحواذ تكون موقتة ، أو دائمة ، أو متقطعة . فتظهر يوما وتختفي في يوم آخر . يقول (ماغنان) : إن هذه المظاهر موقتة ، ولكنها لدائمها في حياة المصاب العصبية لا تفارقه .

ومن نتائج الاستحواذ (الماليخوليا) Mélancolie ، وما يتبعها من حالات . فالمصاب بها يتعذب روحه العذاب الأكبر من يوم الذي يستولي عليه ، خطيئة ارتكبها أو فكرة يعتقدها ، ثم اعتقد أن لا سبيل للتكفير عنها ، أو لتذكره ما اقترفه بداء من مظالم وآثام ، فيطلب الخلاص مما يحس فيرغب في الانتحار . أو تستولي عليه أفكار وأوهام تدفعه إلى سلوك طرق شتى غريبة ، يخيل إليه معها أن أقاربه سيقاضونه أو يعذبونه أو يطاردونه ، أو يرى أن زوجه ستتألم لأمر ما فيفضل أن يقتلها ليخلصها من العذاب .

وكذلك ينمو في المصابين مرض (البارانويا) أو الشذوذ العقلي والخلقي ، فداؤه كراهة ونفور لأشخاص يظنون فيهم السوء . فيخيل إليهم أن أولئك يزاحمونهم في أعمالهم ، ويحاولون إقصاءهم عن مناصبهم . وقد يخيل إليهم أن أصواتا قدسية تأتيهم فيدعي بعضهم النبوة ويدعو بعضهم إلى الإرشاد ، ويزعم بعضهم أنهم يغفرون الذنوب . وقد يقولون إن الشريعة تحرم قبول المناصب الرفيعة ، أو يتصدون لنقد نظام المجتمع ويصمونه بالفساد . ومن هذا النوع من يتظاهر بالعلم ، وأنه فوق كل مقام ،

وأنه الرجل الذي لا شبه له ولا نظير ، فإذا أنكر شيئاً فسواء الحق ، ومن خالفه فأحمق أو جاهل . ومنهم من يحب العظمة حباً جماً ، فيتعاظم على الخلق ، أو يعتقد أنه الكاتب الفذ الذي لم يكتب مثله أحد ، فهؤلاء كلهم مرضى عقول ، تسوقهم دوافعهم المرضية إلى القتل أو الشر أو السرقة أو الحقد .

وكذلك يكون الأمر في أصحاب (العته الشيخوخي) وفي الصرعى ، لأن المصاب بالصرع يظل ، بعد (النوبة) في حالة يمازجها غموض وتشويش وهذيان ، تجعل الدوافع أثناء هذه الحال قادرة على سوق المريض إلى ارتكاب القتل والانتحار .

العوامل النفسية التي تنتهي بالاستحواذ

ليست العوامل النفسية التي تنتهي بالاستحواذ ، أو الدوافع المرضية نوعاً واحداً ، بل هي سلسلة طويلة تختلف حلقاتها ، بدءاً بالنبوغ الخارق وانتهاء بالبلادة الشديدة ولذلك يجب تبيان أهم الأقسام الموجودة ، لمعرفة ما يتعلق بالقانون منها .

١ — العته التام : وهو حال من كان مشوه العقل .

٢ — البله : وهو حال من كانت فيه بعض القوى العقلية غير كاملة النمو .

٣ — الضعف العقلي : وهو يدل على أن بعض القوى العقلية قادرة على الوصول إلى درجة معينة من النمو . والمصابون بهذا الضعف ، يختلفون في القدرة على الاكتسابات الذهنية ، فمنهم من يكون ضعيفاً في البرهان ، أو في التلخيص ، أو في الحفظ ، أو في جمع الأفكار وتأليفها ، ولكنهم جميعاً يتجلى فيهم اختلاف القوى العقلية وعدم تساوي نموها .

أما المعتوهون فلا يُسألون عما يعملون ؛ لأن عقلهم لا يدرك الأشياء ، ولا تجد صلة بين أنفسهم وبين العالم الخارجي ، ولا تؤثر فيهم التربية ولا التعليم وإنما تقودهم الغريزة Instinct .

أما البلهاء فهم أرقى عقلا من سابقيهم . فقد ينجح الإنسان في تعليمهم ، ويغلب على الأبله ضعف اللسان ، ونقص الألفاظ ، تدل تعابيره على نقص مداركه ، وقد يظهر فيه ميل للغدر والشر والاستهتار والجبن ... وهذه أشياء تسوق إلى الجرائم كالسرقة والانتحار

أما أصحاب الضعف العقلي ، فهؤلاء ذوو الشأن في نظر علم الاجتماع والقانون ، لأن عددهم وافر ، ويعيشون بيننا ، فنجالسهم ونعاشرهم ونشاركهم في الأعمال ، لا نرى في حركاتهم ولا أحوالهم ، وهؤلاء يقفون في نموهم العقلي عند درجة لا يتعدونها . فالذي بلغ العشرين من عمره ، يحاكي صبياً ذا خمس سنوات . ويغلب عليهم الحماقة ، وإذا كان فيهم من يميز الحق من الباطل ، فإن ضعفه يحول دون ميله إلى الباطل . وهم لا يصغون إلى صوت الضمير ، إنما يغدون فريسة الشهوات والملذات ، وتتحكم الأثرة فيهم ، ويحتقرون الناس ، وهذا وذاك يسوقانهم إلى الحقد والحسد واللجاج ، وهذه حال توقظ فيهم الأثرة ، وتسوقهم إلى المباكسة والمشاكسة والشك والريبة ، ويبغضون الناس والأصدقاء والأقرباء ، ومن الصفات البارزة في هؤلاء (الرعونة Shontanode) وهي حالة تحدث فجأة بغير اختيار ، أي يقومون بأعمالهم دون تعقل أو روية .

ولأن وقد بحثنا في هؤلاء المرضى بحثاً مستفيضاً ، نتساءل : ما هي آراء الطب في مسؤولية مريض العقل ؟

كانت الهيئة الاجتماعية في الأزمان الخالية تنظر إلى الجناية نظرة فيها قسوة ، فتسوق الجاني إلى القتل ، حتى جاء الرومان فميزوا ذا العقل السليم من ذي العقل المريض ، ولكن صعب عليهم تعيين الشرط الذي يستدعي فساد العقل . فقد يعلم مريض العقل أن ما أقدم عليه محرم لا يجوز له عمله ، ومع ذلك فهو يرتكب الجناية ، مسيراً لا حول له .

على أن هذا لا يدفع إلى جعل مريض العقل مسؤولاً عن عمله . يؤيد ذلك الأدلة المدونة في كتب الطب الشرعي ، ولكن بعض الحكام لا يزال معرضاً عن قبول المبادئ التي وضعها علماء (الانثروبولوجيا) وعلماء الفلسفة العقلية ، ويصرون على إنزال العقاب بالجاني ، لأن القتل أنفى للقتل .

أما مسؤولية مريض العقل في فترة الصحو ، فمختلف فيها . فالمحققون Juriste ، وعلماء الجنايات القدامى يقرون قسماً من المسؤولية ، تعادل ما في عقله من قسم صحيح ،

حول عظمة الرسول

كتب الكاتبون في عظمة الرسول ما كتبوا فلم يبلغوا إلا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وإنما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ وخرج من المقارنة بأنه صلوات الله عليه بطل الأبطال فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل لأنه أوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم أن الرسول والبطل من قبيل واحد ؛ وليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول . فرسالة الرسول صلوات الله عليه خرّجت الأبطال وربّت عظماء الرجال ، بل لم يعرف التاريخ عظمة في أبطاله تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم . وأين في التاريخ — غير تاريخ الرسالة — من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كما سما أصحاب الرسول ؟ بل أين — إلا في تاريخ الإسلام — من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها غير معتزل في جبل ولا مترهب في صومعة ، بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا إياهم بالحق والحزم ، من غير أن يرزأهم من دنياهم إلا بقدر القوت ؟ إن بطولة أبطال التاريخ تتضاءل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول وبينهم وبين أصحابه من البعد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفي الناس من التمس في العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره . ولو جعله عبقري العباقرة ما وفى بل ما زاد على أن جعله فردا من نوع متجدد وإن يكن نوعاً نادرا في الناس . فالذي يثني بالعبقرية كالذي يثني بالبطولة ، كل قد غفل عن أن العبقريين والأبطال يوجدون في كل زمان ، ولا كذلك الأنبياء والرسل ، بله أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه .

ثم في الناس من جاوز ذلك فزعم أنه يثني على الرسول حين نسب إليه ما أجرى الله على يديه ، أو ما أوحاه الله إليه ، كأن ذلك من عمله ، أو كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك أعظم العظماء . كأنه صلى الله عليه وسلم لا يكون أعظم العظماء إلا إذا كانت الرسالة من عنده أو كان وحيها من وحي قلبه وفكره ، كالذي يجري على قلوب أهل الإصلاح والفكر وعلى عقولهم . وليس هؤلاء ولا أولئك مهما ارتقوا بالغي أدنى مراتب الرسالة في أنفسهم أو في أثرها في الناس .

إن كل ثناء على الرسول عما ينتقص من رسالته جهل بالرسول وانتقاص له . وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الإلهي الحقيقي المعروف في الأديان ، ويدنيها من المعنى الإنساني المجازي المعروف في كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد في النهاية للتحلل من الدين .

والمسألة ليست مسألة رغبة أو رأي ، ولكن مسألة حقيقة وواقع . فالرسالة بالمعنى الديني ثابتة للنبي صلوات الله عليه ليس في هذا شك ، وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته وإليها ليس في هذا شك أيضا ؛ فقد لبث في الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم .

غير أن علماء النفس المحدثين وعلماء الجنايات الأشباه (ماندسلي) و (لومبروزو) و (غاروفالو) و ([illegible]) و (مانوفريه) و (لاكاسان) ؛ يقولون إن الجاني يكون تحت تأثير عاملين : الأول (ذاتي) ، والثاني (خارجي) فلا قيمة لثنية المسئولية في مريض العقل .

— النتيجة —

والنتيجة التي ينتهي بها البحث هي أن الطبيب الشرعي إذا دعي لإعطاء رأيه الفني في جناية فعليه أن ينظر إلى الجناية والجاني ، فيبين إذا كان الجاني مجنونا أو مريض العقل ، أو كانت الجناية بسائق دوافع مرضية . فإن كانت وكان ، كذلك ، فسلم عندئذ أنه كان مجبراً على ارتكاب ما ارتكب . فمن كان هـذا شأنه ، لا يعد مسئولا أمام القانون عن جريمته لأنه مريض ، يجب أن يعنى به ويداوى ، فقصاصهم ظلم ، وليس على المريض من حرج .

وبعد ، فهذا ملخص الحديث الذي ارتجله معالي الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، وزير العدل ، وإنه لحديث عجيب طريف ، حري بأن أصطفيه وأقدمه لقرائي . فؤاد

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم أعم الرسالات وأتمها كان هو صلوات الله عليه أعظم الرسل إذ أداها وأكمل البشر ، وهذا معنى يضيق عنه أن يقال أعظم العظماء .

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمرا في الناس فكانوا يثنون عليه كما يثنون على فاضل فيهم . فلما أكرمه الله بالرسالة وأكرم الخلق به تطور خلقا آخر وإنسانا آخر ، وتطورت أمته به أمة أخرى في الأمم ، وتحقق للإنسانية مثلها المعنى الأعلى فيه وفي أمته في عهده .

إن من يعرف معنى رسالة الرسل ويلم بطرف كاف من حقيقتها لا يرى فوقها للإنسان مرتقى ولا يخطر له أن وراءها في مجال العظمة وراء . لكن الألفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها كما تحول الألفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم في الشمس والقمر والماء والشجر والسمع والبصر وسائر ما أنعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها .

إن هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته وفيض حكمته ورحمته ، فهي منه سبحانه [illegible] وهي على وجوده سبحانه دليل ليس [illegible] فما فيها من سر بهر إنما مرده إليه سبحانه ، وما فيها من عظمة تقهر إنما مستمدها منه سبحانه . فعظمة العظيم في الوجود مرجعها إلى موجد الوجود . هو أوجده وهو أفاض على كل موجود ما أفاض من عظمة بما أودع فيه من سر ، وبما فطره عليه من سنن جلت عن أن يغيرها أو يبدلها مخلوق في الأرض أو في السماء . فإذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالإنسان إلى فطرة الإنسان ، وتصورت أن فاطر الفطرة سبحانه قد اختص واحدا من الناس بوحي مباشر ورسالة إلى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التي فطر عليها أرواحهم وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الأخرى — إذا تصورت اصطفاء خالق الخلق للإنسان رسولا على هذه الصورة ، أيقنت أن ليس يداني مقامه في الناس أحد وإن عظم ، وأدركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول .

لكن مجرد إحاطة الإنسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع على يد رسول لا يكفي ، فقد يغفل الناس الفهم والتطبيق . فكان من حكمة الله ورحمته أن حمل رسالة الرسل تشمل شقي التبليغ : تشمل التبليغ القولي على لسان الرسول ، والتبليغ العملي بالحياة العملية للرسول .

فانظر إلى النبي أو الرسول — أي نبي من الأنبياء ، وأي رسول من الرسل — ما أثقل ما حمل وما أعظمه ! كلفه الله بتبليغ دينه للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه كغيره بالعمل بالدين كما أنزل ، لا يحيد عنه ولا يخطىء ؛ لأن خطأ منه ليس كخطأ من أحد . فالخطأ العمد منه في القول أو العمل كذب على الله ، والخطأ غير العمد إن وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله إليه ، ويبلغ هو التنبيه إلى الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على الناس باطل بحق في دين الله .

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمة الأنبياء والرسل . أحدها استنباطي يتعلق بما ينبغي أن يكون عليه النبي أو الرسول حتى يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه ، [illegible] تكون كبيرة في طبيعتها لأنها تتعلق بمقدار ما يبلغ [illegible] من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليغ من أذى ، ومقدار صبره على الأذى في سبيل الله ، ومقدار تعدد نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها ويرقى بها ، ولينظمها طبق سنن الله في الفطرة . ثم هناك معيار إجمالي آخر ما هو أصاب الرسول من نجاح في رسالته كما يبدو من آثارها في الناس .

فهذه معايير عدة صالحة لأن تكون حسابية كما ترى . وتطبيق أي هذه المعايير يحتاج من غير شك إلى إحاطة وجهد وتوفيق . لكنا لسنا في حاجة إلى التطبيق التفصيلي لتبين أن محمد بن عبد الله صلوات الله عليه هو أعظم الرسل حقا وأكمل البشر . فرسالته أعم الرسالات وأرقاها لم تدع ناحية من نواحي الحياة الإنسانية للفرد والجماعة إلا شملها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة أحسن تبليغ وأبينه وأتمه ،

ليلة ميلاد الرسول

أطلت على الأيام والكون مشرق … ونور الهدى فى أفقه متألق
فيا ليلة فيها الهدى لاح نوره … فأحيا الآماق فيضه المتدفق
تجلى بها من عالم الخلد معلق … عروس الهوى فى سماوات تطلق
وأى جمال عبقرى عروبته … له الملأ العلوى يرنو فيعشق
وكل الورى طاب منها حبيبه … وأضحى شعاع الحسن منه وعشق
جمال من الأزمان دام نشره … ولاح من الأجيال منه التألق
جمال مدى الأحقاب رواه … ولا الدهر يبليه ولا العمر يخلق
جمال بأسرار النبوة حافل … فى خاطر القبلية إليه تشوق
فيا ليلة تزهى بأكرم مولد … لطلعته تهفو القلوب وتخفق
يتيمة دهر أنت ، يا ليلة التى … بنور بهم بالمروءات معرق
وهل كان فى دنيا الورى كمحمد … وليد ، وهل في الأرض مثله
تراه طلعت فى الكون بهجة … لها من روح نابض وتدفق
وهب النسيم العذب يحمل نشره … وحركت رياه الغصون تصفق
وفاض على الدنيا بهاء جماله … فأحيا مغانيها رواء ورونق
فى كل نجد من رباه خميلة … وفى كل وهد جدول يترقرق
وفى كل غصن طائر مترنم … طروب الأغانى ، أو حمام مطوق
وفى كل فج من سماء منارة … بلألائها نور الدجى يتمزق
فما البيد إلا لجة من أشعة … وما مكة إلا لج الأشعة زورق
سمعت بأم القرى دون الهوى … فحيدك محبوب ، وعزك يونق
ألقى فخر الشرق الميلاد بنوره … شعورك بالفيض الإلهى مشرق
تجاذبك فرد ليس فى الدهر مثله … عظيم له المجد الأثيل مطوق
إذا مثل الأجيال من آل يعرب … لديه فكل خاشع الطرف مطرق
أتى المصطفى الهادى وأبناء يعرب … عليهم ظلام الجاهلية مطبق
يعانون ذلا ، لا يطاق ، وفاقة … فبعضهم عان ، وآخر مملق
فأرسل فيهم أحمد من رشاده … رشاداً ، به الفوز المبين محقق
وأشرق عليهم من هداه هداية … زهت فتجتاح الضلال وتمحق
وأولاهم بعض التراحم والندى … فى كل ربع روعة وتألق
… … فمضى يمضى خافق القلب شيق
وكون … أمة … فبنيا الصيد الجبار تعمق

بالقول وبالعمل . فالقرآن الكريم … حرف ولم يسقط منه حرف . والسنة … تفسر القرآن كلام الله تفسير صدق بالقول والعمل . وأثر الإسلام فى الناس فى عهد النبى وفى الإنسانية من بعده لا زال يعجب منه العاجبون .

إن من العجب العجاب أن ينهض إنسان أياً كان بكل ما فى الإسلام من تكاليف وتعاليم وتشريع - إن الإنسانية كلها أفراداً وأمماً لم تستطع نهوضاً بكل ما كلفها الإسلام بعد الحقبة الأولى التى طبق فيها الإسلام أتم تطبيق فى نصفها الأول فى عهد الرسول ، وأقرب تطبيق فى نصفها الثانى فى عهد الخلافة الراشدة . ولكنه استطاع صلوات الله عليه أن ينهض بعبء الإسلام كله فى نفسه وفى الناس حتى لم تجد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وصفاً له إلا قولها : « كان عمله ديمة » و « كان خلقه القرآن » . أشهد أن محمد بن عبد الله هو رسول الله حقاً إذ كيف يقوى على سيرته صلى الله عليه وسلم إلا رسول ، ورسول محص الله فطرته ومحصها وأعدها … سبحانه من بين البشرية كلها طبق … بالاستخلاص والإعداد ، حتى إذا آن الأوان وجد فى البشر إنسان واحد تمكن هو وحده الصالح لتلقى الرسالة العامة الكاملة ، وقوى هو على العمل بها أصولها وفروعها فى نفسه وفى الناس .

هذا هو القياس الحق لعظمة الرسول صلوات الله عليه . إنه وحده نهض بما كلفت به الإنسانية قاطبة فلم تستطعه كله ، وفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم فى الناس أجمعين ينهضون به جملة إن استطاعوا ، ويتأسى المتأسى فى ناحية يختارها فيصبح فى الناس مثلا من أمثلة الكمال .

وبعبارة أخرى إن سنن الله سبحانه التى يتحقق بها الكمال الإنسانى قد تحققت فيه صلوات الله عليه فصارت حقيقة واقعة فى الكون ، مجتمعة فى فرد ، ومنتشرة فى أمة ، وصار ذلك الفرد هو المثل العملى الأعلى للإنسانية ، لا يمكن أن يبلغه الناس على مر الزمان وإن اجتهدوا ، ولكنهم يقربون منه شيئاً فشيئاً كلما اجتهدوا .

محمد أحمد الغمراوى

ذكرى المولد

هيهات يحسن نعتاً فيك إنسانُ   عي البيان وحارت فيك أذهان
قد كان للقول ميدان تصول به   في كل ضرب من الإبداع فرسان
فما يقول امرؤ يبغي الثناء وقد   أثنى عليك بمحض الحمد قرآن
عذر الأديب على الإسفاف أن له   وقد كلت شفيعاً وهو إنسان
فكنت كالنور لا يخفى على بصر   لكنما سره في الذهن حسبان
تفرق الناس فيما جئتهم شيعاً   وكلهم لك من الرأي حيران
كم آية لك في الأسماع مشرقة   كأن سامعها المأخوذ نشوان
شمائل كنَّ من طيب يضمن كما   يضوع في جنبات الروض ريحان
غيظ الحسود لآيات أتيت بها   وميعث الغيظ في الحساد إحسان
فجاحديك عن جهل ومعترف   بالحق والناس أصناف وألوان
وما يضير شعاع الشمس إن جحدت
أنوارها من عمار الناس عميان
شجا نساء قريش ما مننت به   فدمعهن على الخدين عتان
يبكين بما من عطف ومرحمة   علماً بأن بني القوم ... [illegible]
وهل درين بأن الدر أشرفه   لليتم منتسب باليتم مزدان
لم يغل أغان تيجان الملوك سوى   يتم اللآلئ إن اليتم أغان
ورفع الله أيتاماً ذرى شرف   تطاول النجم عنها وهو خزيان
شعبت صدع صدور طالما نغلت   به من الحسد المذموم ديدان
نصرت كل هضيم وانتصفت له   من ظالم غمضت في الأمن أجفان
خفضت جنحاً لمظلوم فلاذ به   كما تلوذ بجنح الأم ولدان
كم عن عبد بهدى الدين وارتطمت
ذلية في مهاوى الكفر تيجان
أشهرت سيفاً على الباغين تذرهم   وخير ما منع الطغيان طغيان
فأصبح القوم في صف سواسية   وليس في الناس أحرار وعبدان
بعثتها صرخة لله داوية   أصغت لها من ضمير القوم آذان
أصغت من كان في آذانه صمم   فهب ذو وقر وارتاع غفلان
أتيت والناس أنعام مشردة   غوابة وصدور القوم بركان
ما القرابة من جهل عائمة   عمي القريب وما للخلق أركان
... [illegible] حيار   وكل جار على الجيران ثعبان
... [illegible] تخبطت   به شيوخ وضلت فيه رهبان
فتكشف الليل عن فجر تألقت به   لحاد عن غمرات الجهل حيران
حررت قومك من أغلال شقوتهم   بنعمة العلم إن الجهل سجان
وكم من الناس في الأحياء تحسبهم
لكنهم في جنود العقل أوثان
ورب حر سجين في شقاوته   إن الشقاوة أغلال وأرسان
شدوت باسمك للعاجي طرب   وعادة الطير إنشاد وألحان
شاعت بنفسي من ذكراك أغنية
كأنني في حيا الكأس سكران
تهيجني ذكريات منك ما فتئت   كأنها في حنايا الصدر نيران
وأعذب اللحن ما غناه ذو شجن
هاجت بلابله في الليل أشجان
حملت قلبي قرباناً إليك وما   لدى اليتيم إلا القلب قربان
فاقبل هدية من وافاك معتذراً   عن قلة إن خير العرف غفران

دمشق   عدنان مردم

مشوا في سبيل الحق ... [illegible]   ... [illegible]
أذلوا اصحاب ... [illegible]   ... [illegible]
فلولا نهم فيها الشؤون صواخب   وأسيافهم موت إذا هي تخفق
لقد سبقوا الأجيال عزاً ورفعة   فهم في ميادين المفاخر سبق
وقد أدركوا في ظل راية أحمد   مراماً بعيداً في العلا ليس يلحق
وذكر صروح الشرك كان سيوفهم   ودانهم منها الشؤون فأشفقوا
ومن رخص النفس العزيزة للعلى   ينل قصده بالعز وهو الموفق
ومن يتبع نهج المساواة والإخا   فذلك أولى بالحياة وأليق
فيا خالقاً من أمة الضاد أمة   عليها لواء العبقرية يخفق
ثمرت بأبناء الجزيرة للعلى   ففي كل أفق كوكب يتألق
سقتهم شرعاً به بدرك التي   وينمو به غصن الرجاء ويورق
وعلمتهم درس الحياة وسرها   ووفقتهم في نهجها فتوفقوا
وأنطقتهم آي الكتاب وإنه   حنان وعدل بل هدى وترفق
سلام أعظم الدهر ما لاح شارق   وما هب روح بالهداية يعبق
خلد ذكرك الزمان وإنها   لأحرى بما فوق الخلود وأليق

الكاظمية — العراق   علي جليل الوردي

من وحي المولد النبوي :

مولد النـــور

بين جنح الضلال والترهات ... واختلاف الآراء والنزعات
والضمير الضرير يمعن في التيـ ... ـه وقيد الضمير شر الصفات
وحياة العباد في كل صوب ... ظلمات تنسل في ظلمات
والنفوس الكرام، يا هول شعري!
قذفت حقدها على العتبات
بينما القوم في ضلال عقيم ... والدجى جاثم على الربوات
لاح في الأفق من سنا الله نور
خالد مجده نبيـــل السمات
غمر الأرض والسما ضياء ... وسرى في الحياة روح الحياة
أزهر الجدب يوم لاح وعمّت
نعمة الله هذه الفـــلوات
وجرى في الوجود روح من الخـــير يثير في كل جدب موات
بعد ما كانت الحياة رياء ... وضمير الطغاة عبد الطغاة
بدّد الله ما من الجهل دهراً ... مرسلاً بالهدى نبيّ الهداة
صادق القول والوفاء كريماً ... عربياً مبارك الغدوات

***

أنا عبد يقدم الروح شعراً ... طاهر الحب طاهر النفحات
يتجلى الإيمان فيه نشيداً ... هل رأيت الإيمان في النغمات
صغته من سناك يا باعث النو ... ر يضيء النفوس والترهات
ليتني أستطيع أن أركب الرو ... ح إلى عالم وضيء الصفات
عالم الخلد حيث ألقاك نوراً ... ينشر الهدى في جميع الجهات
من لهذا النبي والأمر يسري ... بين شر الهوى وشر الجناة
من له والدجى منيخ عليه ... والأماني تغيض في الجنبات
عجباً لم يرع ولم يرهب القو ... م ولكن مضى شديد الثبات
ومضت حوله نفوس كرام ... طهرت روحها من النزعات
بارك الله في القليل وخير ... من كثير مبارك الغايات

وإذا الله رام نصراً لقوم ... بلغوا النصر من حصون الطغاة
وجرى بينهم من الله هدْى ... يتلقى بنوره كل آت
النبي الكريم يجهد في الـ ... بر ويطوي الفلاة تلو الفلاة
ساعياً والهدى يضيء حواليـ ... ـه ويرعاه خالق الجنات
هاجر الحق في ركابك لما ... بارك الله تلكمو الخطوات
ساعة خلدت على الدهر معنى ... خالد الدهر طيب الثمرات
سطعت شمسه بنور جديد ... وتبدّت تختال في اللمحات

***

قد رموه بكل شرٍّ ... ـات ورماهم بآيه البينات
عجباً ما لهم يخرون صرعى ... أين فرسانهم شديدو القناة
ما لهم روّعوا فولوا فراراً ... وتولت قلوبهم خاسرات
هل رأيت البيان يهزم جيشاً ... إن قتل الأحرار في الكلمات
كلمات تصول فيهم وتسري ... سريان الحسام في الهامات
واضحات كالشمس في ضحوة الظهـ
ـر تبيد الشكوك باليقينات
[illegible] آية الآيات ... من سنا الله خالق المعجزات
[illegible] في قسوة الدا
ء وفي حبه الجوى والشكاة
أعلات التي راحت تواسيـ ... ـه فكان الشفاء في الأعلات
لمست كفه الحطام فأحيت ... جنبات الحطام في لمسات
يا رسول الإله عبدك شاك ... موجع هدّه السقام العاتي
كلما طالع الحياة ابتساماً ... عاقبت قلبه على البسمات
روحه مغرم بكل نبيل ... من كريم الصفات والغايات
شاعر روحه يذوب مع الفـ
ـن كذوب القلوب في النظرات
ود لو يستطيع أن يركب الرو
ح إلى عالم وراء الحياة
عالم الخلد حيث يلقاك نوراً
ينشر الهدى في جميع الجهات

الإسكندرية — حسين محمود البشبيشي

صلوات فكر

في محاريب الطبيعة !

نظرتان : عرفتُ في نفسي نظرتين إلى الطبيعة : حيناً أنظرُها كرائد صورة فنية كبيرة الحجم جدا ، فهو يبتعدُ عنها ليأخذها وضعاً تبدو فيه وحدةً مُجتَمِعةً متناسقة واضحة الخطوط والمعاني التي أرادها راسمُها ، وتترك في النفس أثراً واحداً رهيبَ الوحي .. !

وحيناً أنظرها من قُربٍ ينطمس معه وجهُها العام وتختفي وحدتها الجامعة ، وتبــدو أجزاؤها وأصباغها المفصَّلة المُميَّزة .

الأولى أتعمدها حين أريد إدراك معناها العامّ بفكرة واحدة ... وهي نظرةٌ تحرك في نفسي نوازعَ الشِّعر والوجدان والاستغراق الحالم والإيمان المستسلم والشعور بالضآلة بين غمرات الكون ورحابه وأبعاده اللانهائية التي توحي إلى العقل بالصمت وترك الحيرة ... والثانية أعمدُ إليها حين أريد أخذ المبادىء والأبجديات ودراسة الكلمات التي أجدها في صفحاتها لأملأ بها أوعيتي ، ثم أنطلقُ وأتحدث وأُثَرْثِرُ لأُثبتَ وجودي .. !

وهي نظرة تبث في نفسي كفاية العلم والعمل والإحساس بالذاتية الإنسانية التي تؤهل الإنسان وتشجعه على أن يجلس بين يدي باري الطبيعة كتلميذ بين يدي أستاذه ... فلهُ الحقُّ في المناقشة والاستفسار والاقتراح ! وله الفخر والزّهو أن يكون فكرُه قد سما حتى نفذ إلى بعض أسرار يد الله في الصنعة ! وله الجرأةُ أن يمدّ يدَه إلى مصانع الخالق فينقلَ شيئاً من مكانه ، ويُزاوجَ بين شيء وشيء ، ويفصلَ بين سرّ وسرّ ، ويحاول فتح ما يجده من الأسداد والأغلاق ...

وإنّي لجدُّ حريصٍ على أن يظل عقلي وقلبي دُولةً بين هاتين النظرتين ...

وإني لأفرُّ من هذه لتلك ومن تلك لهذه ؛ حتى لا تأخذني الأولى إلى تعطيل قواي ، والشعور بالعجز المطلق .. ولا تأخذني الثانية إلى الغرور والادعاء ونسيان موضعي الحقير من الكون ومصيري المجهول إلى ظلمات الفناء !

قوى جبارة : إذا تخيلتَ عُباب البحر وزوابعه حتى يصل إلى سطحه في طرفة عين ... وإذا تخيلتَ جوف البركان يمور مافيه ويضطربُ بحممه وسمومه وحميم وجحيم ... وإذا تخيلت اندفاع الريح في إعصارٍ مجنون يقفز من قمة جبل إلى أخرى ، ويملأ الوديان والسهول ويدوس المراعي ويقتلع الشجر ويهدم الدور في خطفة صاعقة ... وإذا تخيلت سرعة الشموس والنجوم الكبرى في دورانها التي يكاد يأخذ الفكر الراصد .. وإذا ما كدت أن العالم ملىء بهذه الأهوال ، التي لا يقبل الجهد البشري بتحملها ؛ لأنه ابن الأرض التي يسير فيها كل شيء بميزان هادئ رفيق تلتقي فيه القوى متناسبة متوازنة ... وإذا تخيلت سكان العوالم الجبارة الذين لا بد أن يكونوا من القوة والسطوة بحيث تكون هذه الأهوال مراكبهم وصنائعهم ... وإذا تيقنت أنه لابد أن يكون هناك فكر جبار يصاحب هذه الفعاليات الدائمة ويسيّرها كلها معاً واحدة لئلا تنفجر جامحة أو تلتقي طاغية متناقضة مخرّبة نظامه ناقضة أحكامه ... إذا تخيلت وتخيلتَ .. ثم تيقنتَ وما كدتَ ... فاعرف قدرَ الذي يجب أن تفرّ إليه لتلوذَ به وتحتميَ فيه من أهوال النار والهواء والماء والتراب الثقيل الفادح ! الذي وضعك في هذه الأرض بموضعٍ أمين كمهدِ الطفل تهيئه الأم .

إن سطح العالم الذي تشاهده عيناك مما كنا هادئاً فوق في السماء ، وتحت قدميك في الأرض ، إنما هو غطاء قدرٍ هائلة تتضرّب فيها كل عناصر المادة وتعترك قواها وطاقاتها ، مما لا يمكن أن يدركه إلا الذين أيديهم فيها وعيونهم عليها من زبانية ودفّاعين ورعاة وساقة وقادة ...

أولئك الذين يقبضون الرياح ، ويحبسون البحار ، ويديرون دولاب الليل والنهار ...

الكائنات جبارة عارمة ، ولكن القيود والقوالب

ضاغطة حازمة ! تحبس كل كائن في دورته الأبدية فلا يستطيع أن ينسل من حظيرة لأخرى إلا حين الانطلاقة الكبرى !

مغازل ومناسج : وراء سطوح الحياة تقف قوى وديعة صبور حاذقة دءوب تنتظر وفود البذور والنطف فتتلقاها وتدبر منازلها وتبسط مناسجها وتنسج منها ديباجة الحياة وتكونها وتصقلها وتخرجها موقعاً عليها من مهندس واحد !

ووددت لو كنت الفنان النابغ « والت دزني » لأخرج ما في نفسي من الصور التي أتخيلها في جو هذه الفكرة !... ما الذي يوقظ البذور والنطف إلى أسرار وراثتها ويدفعها في طريق سلالاتها ؟... ما الذي يدفع البذور إلى التفرع والعلو ، والجرثومة المنوية إلى الازدواج والنمو ؟... ما الذي يمط أجسام الأجنة ويخطط وجوهها وينقل أسرار الأنواع من الآباء للأبناء ؟... ما الذي يأخذ الطفولة من العجز والضعف والغباء والتفاهة إلى القدرة والقيمة والتسلط ثم يردها إلى الضعف والعجز والفناء ؟ ... ما هو العامل الخفي في دفع الجراثيم الميتة إلى مجرى الحياة حتى تصل إلى التركيب والتعقيد

الأيام واحدة والليالي واحدة ! الشمس والقمر والرياح والأضواء والأتربة واحدة . ومع ذلك فاليوم الذي يحيي موتاناً هو ذاته الذي يميت حياة !

ما هو هذا الشيء الدقيق الخفي العميق البعيد عن الأنظار والمجاهر والأرصاد ، الشارب إلى ظلمات الأرحام أرحام النبات والحيوان فلا يدع سر نوع يلبس جسم آخر ؟

لماذا لا تنبت الغلال عقارب ، والحنظل تفاحاً ، والشوك حريراً وزبداً ؟

أيها العلم الخفي الهادي أقدام الحياة بين القوى العمياء ، الحارس الحافظ لضعفها بين عوامل الموت والجمود والجبروت ، المقيم الحواجز بين الأنواع والفصائل لمنع الاختلاط والطغيان ، القائل لكل بذرة وجرثومة : إستيقظي وخذي طريقك إلى سلالاتك وأشياعك ...

هل تخيلت فكرى أمامك غير هذه الأصوات الخافتة التي كان روحي ينتزعها من أعماق كل كائن ليناديك بها في صلاة جامعة ؟ !

حيث الماء : حينما تهب على وجهي الرياح الباردة ، أسافر بخيالي إلى حيث منبعها ومهبها هناك ... حيث تجتاح العواصف الثلجية البوادي والبحار وأريد رسم « لوحة » للطبيعة عند القطب .. حيث أرى الشمس البيضاء والهواء المقرور والماء المشلول والتراب المستخفي بأكفان الثلوج .. حيث تعوى الريح المجنونة في السكون الموحش الواجم الجاثم على البوادي والبحار .. هنالك مكان وحي ! هو وحي العدم والتجمد .. حيث قلب الأرض بعيد بناره ودفئه .. حيث يسقط الماء وهو أصل الحياة جثة ميتة جامدة ... الماء الذي يحرك عوامل الحياة يغدو جسداً مشلولا ! سقط في قبضة فبحر من زمهرير العدم الأزلي ...

هنالك تبدو الشمس أم الحياة ، وهي تمد خيوط أضوائها وإشاعات حرارتها إلى قلوب أحياء تلك الأصقاع كما تمد أم يدها إلى أبنائها الضعاف الهزيل ...

هنالك طبيعة ذات شيب وعقل ، برد في جسمها الدم وفني فيها ... تبعد عن أتون خط الاستواء الذي تغلي مراجله في أجسام سوداء تعترك فيها عوامل الحياة .. طبيعة معجمة صامتة ملت أبناءها الصمت والإعجام إلا في قهقهة الدببة وصراخ كلاب الماء ...

وهنالك قد نتذكر ما في قلوبنا من حرارة قبست من مصدر مجهول !

نحن في غفلات عما يدور في الأكوان ! غفلات قلوب لا غفلات أفكار ... إذ أننا نحصل « العلم » ونحفظ قضاياه وكلماته في « حوافظنا » الباردة ولا نرسله للقلب « ليشعر » به ويضفي عليه من أحاسيسه ما يجعله حياً في الروح .

ولابد للقلب الإنساني من أن يسير وراء الفكر أينما سار ، فيرى هذا ليشعر ذاك ... لا بد من أخذ الطبيعة بالقلب كأخذها بالفكر .

ألا أن الحياة رحلة ممتعة للذين جعلوا رحاب القلب

أدب القاضى الفاضل

رأينا فى المقال السابق كيف سلمت للقاضى الفاضل زعامات ثلاثة هى : الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة الأدبية . والناس منذ القدم لا يستطيعون أن ينظروا إلى الأدب دون أن ينظروا فى الوقت نفسه إلى صاحب هذا الأدب ، أى أن أدب العظيم لابد أن يكون عظيما ، وأدب رجل أقل منه عظمة لابد أن يكون كذلك وهكذا . ومعنى ذلك أن شخصية الأديب تنعكس على أدبه فتضفى عليه ما شاء من صفات العظمة . والحق أنه ما دام الأدب لسان العواطف وأداة لنقل الشعور ، فالناس معذورون دائما فى أن ينظروا إلى الأدباء هذه النظرة غير المنصفة ، وليسوا مخطئين كل الخطأ فيها . والشهرة الأدبية نفسها بعض رزق الرجل ، ومن الناس من وسع الله له فى رزقه ومنهم من قُدر عليه . فلا نسأل إذن كيف راجت طريقة الفاضل الأدبية فى عصره وتكيفت أذواق الناس بذوقه ؛ فلا غرابة فى ذلك — إذ لو أن زعماء الأدب فى عصرنا هذا قد أريد بهم فاختاروا لأنفسهم طريقة أدبية غير الطريقة التى ألفها منهم لوجدنا أنفسنا بعد وقت قصير نتذوق طرائقهم وننفر مما عداها من الطرق .

قامت الطريقة الفاضلية فى الكتابة على السجع والجناس ، وعلى المقابلة والطباق ، وعلى تشخيص المعانى وتجسيم الجماد ، وعلى غير ذلك من المحسنات اللفظية التى سنشرحها والتى يعرفها الناس إلى عصر هذا الأديب البارع . والألوان كثيرة وقريبة فى متناول كل رسام ، يستطيع تأليفها وتركيبها ، ويستطيع فى الوقت نفسه أن يحصل على ريشة يرسم بها ما أراد . ولكن ريشة الفنان الماهر هى وحدها التى تستطيع أن تخرج من هذه الألوان لوحة فنية ناطقة ، أو هى وحدها التى تستطيع أن تشخص لك المعانى تشخيصاً يخيل إليك فيه أنها أناس تتحدث إليها وتتحدث إليك ، وتحرك مشاعرها وتحرك مشاعرك ، وتضطرب فيها وتضطرب فيك ، وتخلق بينكما هذه الحياة الشعورية التى تنعم بها وتود ألا تفارقك . ومعنى ذلك كله أن الفنان رجل موهوب وأن سر عظمته ليس فى صندوق ألوانه وأصباغه ، وإنما هو فى قدرته على الاستفادة من هذه الألوان والأصباغ . وذلك إذن سبب آخر من أسباب عظمة القاضى الفاضل الأدبية كما سنرى بعد أمثلة منها .

[illegible] نتحدث عن الفن ، وننظر الى الأدب على أنه فن ، فنتدرك شيئاً آخر يغيب عن أذهاننا أحياناً ، وهو أن بيننا وبين القرون الوسطى فروقا من حيث الحياة ، وفروقا من حيث المزاج وفروقا من حيث الحضارة ، ولابد لهذه الفروق كلها من أن تترك أثرها فى الأدب . فأما فرق ما بيننا وبين القرون الوسطى من حيث الحياة فيتلخص كله فى أن حياتنا قائمة على السرعة ، وأن حياتهم قامت على الأناة ، فنحن الآن فى عصر الآلة ، والآلة هى التى تصنع لنا الحذاء الذى نلبسه ، والعامل الذى يديرها لا يشعر باللذة التى كان يشعر بها صانع الأحذية فى تلك الأزمان . ومن ثم أصبحت الآلة سببا فى حرمان هذا العامل الحديث حرماناً قاسيا من تلك اللذة الفنية التى كانت تملأ نفس الصانع القديم بهجة ، فيتعوض بهذه البهجة عن نقص الأجر الذى كان يأخذه وعظم الجهد الذى يبذله .

وليس شك فى أن الآلة التى منى بها الأدب فى العصر

هى رحاب الفكر ، ورحابَ الفكر هى رحابَ الأرض ، وما استطاعوا أن يدركوه من رحاب السماء ، فملأوا عيونهم من مشاهد الطبيعة كلها ، وتسمعوا إلى أوتارها كلها وشنشنوا أرواحهم بأنغامها قبل الرحيل . . .

جزى الله « بيرو » ، و « أمندسن » ، و « نانسن » ، و « شاكلتن » ، و « سكوت » ؛ وغيرهم من الرحالين الرُوّاد الذين أضافوا إلى ملكوت الإنسان هذه الأصقاع القطبية النائية التى كان النهار والليل يتعاقبان بها فى خفاء ، وظلت ضنينة بأسرارها حقباً ضاربة فى أعماق الأزل ، حتى أتى ابن الإنسان . . ابن الكفاح والشوق إلى قهر العوامل الجبارة واقتحام العقبات الكأداء ، فانتزعها من يد المجهول وأدخلها فى رحاب العلوم . . . عبد المنعم منوفى

الحديث هي « الطبعة » . فمنذ ظهورها والأدباء يحاولون الإسراع في الإنتاج ، ولكن هذا الإسراع نفسه كان لصالح الثقافة وضرر الفن . فلقد كان من نتيجة ذلك أن قدّم الأدباء للجمهور أدباً لا حظّ له من الدقة والأناقة ، ولا نصيب له من الأناة والإبطاء ، فأقبل الجمهور على هؤلاء كما يقبل الناس في إيطاليا في عصرنا هذا على آلة تصنع لهم (المكرونا) ، يسقطون في بعض خروقها قروشاً ، فتسقط الآلة في حلوقهم طعاماً ، تنشغل في ازدراده أفواههم ، وهم وقوف أمام الآلة حتى تسكت هذه عن عملها ، فتسكت الأفواه عن مضغها ، وهكذا ينتهي القوم من وجبتهم ليعودوا سراعاً الى مصانعهم أو مكاتبهم ليقضوا فيه بقية اليوم .

فأين هذا كله من تلك المائدة التي يتمتع بها أصحاب الدور أو القصور ، وهي مزدانة بكثير من الورود أو الزهور ، وعليها ألوان كثيرة من أطعمة لذيذة وضعت في آنية الذهب أو الفضة ؟

ذلك إذن هو فرق ما بين حياتنا نحن وحياة الناس في العصور الوسطى . حياتنا كما ترى قائمة على العجلة ، وحياتهم قائمة على اللذة ، وعملنا آلي ، وعملهم فني في أكثره ... وكان من نتيجة ذلك أن كل ذي مهنة في عصرنا أصبح ضائقاً بها غير مستريح لها ، يتمنى اليوم الذي فيه يتركها ويجرب حظه في مهنة أخرى . أما العصور الوسطى فكل ذي عمل فيها غارق في هذا العمل ، مستمتع به لأنه إنما يعالجه معالجة فنية تورث صاحبها هذه اللذة التي نتحدث عنها . والمقارنة بين آثارنا والآثار الأدبية التي خلفها لنا الفاضل وأمثاله توضح لنا هذه الفروق كلها بجلاء لا يقبل الشك .

أما الحضارة — كأمر من الأمور التي ينبغي أن نلاحظها عند ما ندرس أثراً مصرياً أو شرقياً من آثار القرون الوسطى — فنحن نعلم أن القاضي الفاضل وُلد له مذهبه هنا وهو عصر الفاطمية . وفي العصر الفاطمي بلغت مصر من الحضارة المادية شأواً لا سبيل هنا الى وصفه أو تلخيصه بحال ما .

تلك الأثواب المزدانة بأنواع القصب ، وتلك الأستار المزركشة بشتى الصور أو بالذهب ، وتلك الجدران التي تُرصّع فيها النقوش ، وتلك الأرض المرصوفة بالفسيفساء ، وتلك التماثيل الرائعة من الرخام أو البلور وغيرهما من كرائم الأحجار ، كل أولئك كان له أثر واضح في الأدب الرسمي الذي صدر عن كتاب ذلك العهد ووزرائه حين امتلأت أعينهم وعقولهم بجماله وبهجته وروائه .

والخلاصة أنك من أدب الفاضل دائماً أمام غادة حضرية صقلتها الحضارة وجلاها النعيم ، قد وقفت أمام مرآتها أكثر يومها تقص شعرها وتصفّفه على الجبين بطريقة تغري الناظرين . فإذا فرغت من رأسها التفتت بعدُ الى وجهها فصبغته بأصباغ تتحول به الى مخلوق جديد : فمن حاجب لها توشك أن تمسحه من وجهها لترسمه بقلمها من جديد ، ومن فم تضع عليه صبغاً يأخذ به الفم حجماً وشكلاً كما تشتهي الغادة أو تريد ، ولو قد استطاعت هذه الغادة أن تتوب أيضاً بحجم أنفها وشكله الخارجي لفعلت ، ولكنها تعجز عن ذلك وتنتقل منه الى صدرها وجيدها فتزينهما بما تختار من أجمل الحلى والعقود ، ثم من ذلك تنتقل الى اختيار الثوب الذي يليق وكل هذه الفتنة !

والغريب أن هذه الغادة التي يبدعها لنا قلم القاضي الفاضل تأبى أن تخرج من خدرها مستهترة أو كالمستهترة التي تطمع فيها من ينظر إليها من المارة في الطريق ، وإنما تطلع عليهم بهذه البزة الحسنة والهيئة المستحسنة ، وهي مع هذا كله أدنى الى الجد وأنأى عن الطيش ، فيزداد الناس فتنة بها وإجلالاً لها ، وتنحسر عيونهم عنها وهي ممعنة في إعجابها بنفسها إمعاناً يخفيه ما تتكلفه من جد وتحاوله من عقل .

(وبعد) فلما نتحدثْ عن هذا الأدب الفاضلي نفسه ، أو نعرض شيئاً ولو بسيطاً من نماذجه ، ولا تحدثنا كذلك عن شيء من مصادره وثقافة صاحبه ، فليغفر لنا القراء هذه المقدمات الطويلة ، وموعدهم فيما يريدونه الأسبوع الآتي بمشيئة الله تعالى .

عبد اللطيف حمزة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر